((عاقبة الذين اتقّوا الجنة وعاقبة الذين كفروا النار))
الآيات (٣٣ ــ ٣٥)

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۚ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

في أسلوب الاستفهام الإنكاري تسأل الآية الكريمة : أفمن هو قائمٌ على كلّ نفسٍ بما كسبت، ورقيبٌ على كلّ إنسان بما قدّم وأخّر، وحفيظٌ على كلّ مخلوقٍ بما أتى وتركَ، نطق وأخفى كمن ليس قائماً على شيءٍ ولا رقيباً ولا حفيظاً ولا يملك لنفسه فضلاً عن سواه نفعاً ولا ضرّاً. ومن البيّن أنّ الجواب محذوف لمعرفة السّامع. وتبيّن الجزئيّة التّالية فحوى هذا السّؤال : ﴿وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم﴾ إنّ الآلهة المزعومة الّتي لا تقوم على شيءٍ كيف تُسوّى بالله تعالى القائم على كلّ شيءٍ وكيف تُجعل شركاء لله تعالى في العبادة. وتأكيداً لعجز الآلهة المزعومة وهوان شأنها يُطْلَب من المشركين أن يسمّوا معبوديهم واحداً واحداً كي يُتأكّد أنّها أسماء لا مسمّيات تحتها. أمّ أنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم حينما يعبدون الآلهة المزعومة يريدون أن ينبّئوا الله تعالى ويخبروه بما لا يعلمه جلّ وعلا في الأرض، أم ينبّئوه جلّ وعلا بشأن الآلهة المزعومة بظاهرٍ من القول صادرٍ عنهم ليس ثمّة من معنىً له ولا حقيقة من ورائه.

إنّ السّياق يُضرب عن كلّ سذاجات الكافرين الّذين يهرفون بما لا يعرفون ويأتون من المنكرات ما لأبعادها الشّنيعة يجهلون ويقرر أنّ الكافرين زيّن لهم الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء مكرهم وكيدهم، وصُدُّوا عن سبيل الهدى جزاء صدّهم الآخرين عنه، ومَدّ الله تعالى لهم في عمههم وضلالهم فلا هادي لهم ولا ناصر.

لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

إنّ أولئك الّذين آثروا الضّلالة على الهدى إن لم يتوبوا إلى الله تعالى قبل موتهم توبةً نصوحاً لهم عذابٌ في الحياة الدّنيا وفي الآخرة. وبشأن عذاب الدّنيا جاء منكّراً دليلاً على عظم عذاب الدّنيا وتنوّعه[1] وبشأن عذاب الآخرة هو أشقّ وأشدّ. وليس لهم من دون الله تعالى من واقٍ ولا مانع.

---

(١) انظر الكشّاف ٢/١٦٨ والبحر المحيط ٥/٣٩٥.

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

فى مقابل العذاب الشّديد الّذى للكافرين فى الحياة الأولى ثمّة الحياة الطّيّبة المفهومة ضمناً فى حقّ المؤمنين. وفى مقابل النّار الّتى هي عُقبى الكافرين ومصيرهم وعاقبتهم ثمّة الجنّة الّتى هي عقبى المؤمنين ومصيرهم وعاقبتهم. وحول هذه المعانى تدور الآية الكريمة.

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ صفة الجنّة الّتى وعد الله تعالى المتّقين ونعتها أنّها تجرى من تحتها الأنهار المختلفة من ماءٍ ولبنٍ وخمرٍ وعسل، ولا تغيض ولا تفيض. ومعروفٌ أنّ فى الحياة الأولى أنهارَ الماء وحدها وهي عُرْضةٌ لأن تغيض أو تفيض. وكما كان الماءُ فى الجنّة غير منقطع كان أُكُلُها وما يؤكل فيها غَيْرَ مقطوعٍ ولا ممنوع. ووراء ذلك ثمّة الظّلّ الممدود دائماً. ما أجمل دوام ماءِ أنهار الجنّة وثمرِها وما يؤكل منها وظلّها. إنّ أيّ حديقةٍ فى الدّنيا إذا تدفّق ماؤها باستمرار وآتت أكلها على الدّوام كانت نعمةً من أكبر نعم الله تعالى على عباده. فإذا أضيف إلى ذلك الغيم الجميل الّذى يحجب الشّمس نهاراً كان الجمال الغاية فى الكمال وكان النّعيم الغايةً فى التّمام. إنّ مِثْلَ هذه الجنّة فى الحياة الأولى غيضٌ من فيض جنّات النّعيم الّتى أعدّها الله تعالى فى الحياة الآخرة للمتّقين.

(إصرار الكافرين على الإعراض عن القرآن الكريم وسائر الآيات)

الآيات (٣٦ ـ ٤٣)

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

ومن الأحزاب : أي اليهود والنّصارى[1] ومن أهل الملل المتحزّبين عليك وهم أهل أديان شتّى[2] من مشركى مكّة ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس[3].

يصحّ أن تكون الآية الكريمة من الآيات الكريمة المدنيّة فى هذه السّورة الكريمة المكّيّة. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب من اليهود والنّصارى يفرحون بما أنزل الله تعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ من قرآنٍ كريم بشّر به كلّ من التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام. ووراء ذلك هنالك جماعات من الأحزاب من أبناء الدّيانات المختلفة الّذين تحزّبوا على الكفر من ينكر بعضاً من القرآن الكريم. ولمّا كان القرآن الكريم كلّه موحىً به من الله تعالى ربّ العالمين المعبود بحقّ وحده لا شريك له فقد أُمِرَ عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لأولئك الّذين يؤمنون ببعض القرآن الكريم ويكفرون ببعض وكذلك للّذين ينكرونه كلّه مِنْ باب الأحرى والأولى إنّما أمرت أن أعبد الله تعالى وحده لا شريك له الّذى أوحى إليّ بهذا القرآن الكريم وأمرنى أن أدعو به وأجاهد الكافرين جهاداً كبيراً. إنّى أدعو إلى الله تعالى على بصيرةٍ فى هذه الحياة الأولى وإليه جلّ وعلا مآبى ومرجعى فى الآخرة.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

وكذلك أنزلناه حكماً عربيّاً : الحاء والكاف والميم أصلٌ واحدٌ وهو المنع. وأوّل ذلك الحُكْم، وهو المَنْع من الظّلم. والحِكْمة هذا قياسها، لأنّها تمنع من الجهل[4] ويريد

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥١٨.
(٢) تفسير الطّبري ١٣/١١٠.
(٣) تفسير القرطبي ٣٥٥٥.
(٤) معجم مقاييس اللّغة : «حكم» ٢/٩١.

بالحكم ما فيه من الأحكام[1] والحُكْم : مصدر قولك حكم بينهم يحكم أي قضى، وحكم له وحكم عليه. الأزهري : الحكم القضاء بالعدل[2] الجوهري : الحكم الحِكمة من العلم[3] والحكم : العلم والفقه. قال الله تعالى ﴿وآتيناه الحكم صبيّا﴾[4] وفي الحديث : الخلافة في قريش والحُكْم في الأنصار. خصّهم بالحُكم لأنّ أكثر فقهاء الصّحابة فيهم، منهم معاذ بن جبل وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وغيرهم[5] ويقول ابن كثير : «أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السّماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً».

ممّا سبق يتبيّن أنّ لفظة : ﴿حكماً﴾ في الآية الكريمة يصحّ أن تفيد الحكم والقضاء بهذا الكتاب الّذي نزل بلسانٍ عربيّ مبين، كما يصحّ أن تفيد لفظة الحكم معنى الحكمة، فالقرآن الكريم رأس كلّ حكمة، كما يصحّ أن تفيد لفظة الحكم معنى المحكم النّسج المتقن البناء. جاء في سورة هود[7] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿الر. كتابٌ أُحكِمت آياته ثمّ فصّلت من لدن حكيمٍ خبير﴾ والمعنى : هذا كتابٌ أحكمت آياته من حيث اللّفظ وفُصّلت من حيث المعنى.

وإنّما صحّ أن يكون معنى القول : ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ وكذلك أنزلنا القرآن الكريم لتحكم به أيّها الرّسول الكريم وتقضي بين النّاس، وجعلناه بلسانٍ عربيٍّ مبين، لأنّ الحكم إنّما يكون بقمّة الحكمة، وبذلك كان الحكم أعمّ من الحكمة[8] بجامع المنع فيهما، المنع من الظّلم في حقّ الحكم، والمنع من الجهل في حقّ الحكمة. وبذلك صحّ كذلك أن يكون معنى ﴿حكماً﴾ حكمة. وقد عرفنا أنّ القرآن الكريم عين الحكمة، وهذه الحكمة تتجلّى كذلك في الأحكام. وإنّما صحّ أن يكون الحكم بمعنى المحكم النّسج لأنّ هذه صفة القرآن الكريم كلّه.

---

(١) تفسير القرطبي ٣٥٥٥ .
(٢) لسان العرب : «حكم» .
(٣) لسان العرب : «حكم» .
(٤) لسان العرب : «حكم» .
(٥) لسان العرب : حكم» .
(٦) تفسير ابن كثير ٥١٨/٢ وأنظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حكم» ١٢٧ .
(٧) الآية ١ .
(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حكم» ١٢٧ .

والحقيقة أنّا نميل إلى كون المعنى : وكذلك أنزلنا القرآن الكريم حكمةً عربيّةً بتّصف بها كلّ القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، وهذه الحكمة تشمل بطبيعة الحال أحكام القرآن الكريم فقد عرفنا أنّ الحكمة تتجلّى فى أرفع صورها فى الأحكام. وإنّ الميل إلى هذا المعنى يستند إلى عدّة أسباب. منها أنّ الحكمة صفة كلّ القرآن الكريم بما فى ذلك آيات الأحكام الّتى تجىء فى عددٍ من آي الذّكر الحكيم. ومنها أنّ الذّهاب إلى أنّ الحكم بمعنى الحكمة الّتى تشمل كلّ القرآن الكريم يتمشّى مع الصّفة الأخرى : ﴿عربيًا﴾ الّتى تشمل هي الأخرى كلّ القرآن الكريم. ومنها أنّ الحكمة تتعامل مع العقل، والّذى يقابل العقل الهوى. ولمّا كان من صفات هذه السّورة الكريمة الجمع فى نسقٍ بين الصّفات المتقابلة وكان العقل أو الحكمة يقابل العاطفة أو الهوى، وقد جاء النّصّ فى الآية الكريمة على الأهواء فربّما كان فى ذلك دليلٌ إضافيٌّ على الرّأي الّذى ذهبنا إليه من كون الحكم بمعنى الحكمة. ومن البيّن أنّ الحكمة الّتى يتّسم بها كلّ القرآن الكريم تتعامل مع المعنى أو العقل وأنّ إحكام نسج القرآن الكريم كلّه، وهو المعنى الثّالث المحتمل، يتعامل مع اللّفظ أو المبنى. وقد عرفنا أنّ الهوى يقابل العقل أو الحكمة وهي ضربٌ من المعنى كما عرفنا. وربّما كان فى ذلك دليلٌ آخر على الرّأى الّذى ذهبنا إليه. والله تعالى أعلم.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ المصطفى ﷺ لو اتّبع - فرضاً - أهواء الكافرين فى أيّ صورةٍ من الصّور بعد ما جاءه عليه الصّلاة والسّلام من العلم من ربّه جلّ وعلا ومن الوحي فى هيئة القرآن الكريم والسّنّة المطهّرة ماله عليه الصّلاة والسّلام من الله تعالى من وليّ ولا ناصر، واقٍ من عذابه جلّ وعلا ولا دافع.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

فى أسلوب القسم، فاللّام من ولقد لام القسم لقسم مقدّر[1] تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ ربّ العزّة كما أرسل محمّداً ﷺ أرسل المرسلين السّابقين، وكما جعل له عليه

---

(١) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١٦/٧ .

الصّلاة والسّلام أزواجاً وذرّيّة جعل لهم أزواجاً وذرّيّة، فلماذا يستكثر الخصوم على المصطفى ﷺ الأزواج والذّرّيّة، وهو واحدٌ من البشر لا يختلف عنهم فى شيءٍ إلّا فى اصطفاء الله تعالى له بالوحي الّذى ما كان يعلمه عليه الصّلاة والسّلام من ذى قبل، فضلاً عن أن ينتظره أو يقترحه. والمصطفى ﷺ شأنه بشأن المعجزة الّتى خصّه الله تعالى بها شأن سائر المرسلين: ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلّا بإذن الله﴾ ولكلّ أجلٍ كتابٌ، ولكلّ مدّةٍ مضروبةٍ لأي شيء[1] كتابٌ مكتوبٌ بها، وكلّ شيءٍ عنده بمقدار[2].

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ الله سبحانه وتعالى يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء إثباته وعنده جلّ وعلا أمّ الكتاب، اللّوح المحفوظ الّذى لا يبدّل ولا يغيّر[3] قال ابن عمر: سمعت النّبيّ ﷺ يقول: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلّا السّعادة والشّقاوة والموت[4] وروي هذا المعنى عن ابن عبّاس[5] وروي أنّ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول: اللّهمّ إن كنت كتبتنى فى أهل السّعادة فأثبتنى فيها. وإن كنت كتبتنى فى أهل الشّقاوة والذّنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السّعادة والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب[6] ويقول القرطبى[7]: «والعقيدة أنّه لا تبديل لقضاء الله، وهذا المحو والإثبات ممّا سبق به القضاء. وقد تقدّم أنّ من القضاء مايكون واقعاً محتوماً، وهو الثّابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحو. والله أعلم».

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له: إمّا نرينّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فى حياتك بعض الّذى نعدهم من العذاب فذاك[8] أونتوفّينّك قبل إنزال

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «أجل» ١١ وتفسير ابن كثير ٢/٥١٩.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥١٩.
(٣) تفسير القرطبي ٣٥٦٢.
(٤) تفسير القرطبي ٣٥٥٨.
(٥) تفسير الطّبري ١١١/١٣ وتفسير ابن كثير ٢/٥١٩.
(٦) تفسير القرطبي ٣٥٥٩.
(٧) تفسير القرطبي ٣٥٦١.
(٨) أنظر- مثلاً- الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١٨/٧.

العذاب بهم فلا لوم عليك[1] وإنّما عليك في كلّ الأحوال والأوقات البلاغ وحده وعلينا الحساب.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

من مظاهر عذاب الله تعالى للكافرين في الحياة الدّنيا قبل الآخرة أنّ ربّ العزّة الّذي أعزّ الإسلام وجنده ينقص دائماً وأبداً أرض الكافرين من جميع الأطراف. وإذا كانت الآية الكريمة مدنيّة استطعنا أن نفهم أنّ نقص أرض الكافرين عن طريق انتصار المسلمين على الكافرين واستيلائهم على أرضهم وانتشار الإسلام فيها. وإذا كانت الآية الكريمة مكّيّة استطعنا أن نفهم أنّ نقص أرض الكافرين عن طريق انتشار الإسلام في أنحائها وتحوّلها بلاداً إسلاميّة. وإذا كانت الآية الكريمة مدنيّة، وهو ما نرجّحه، والله تعالى أعلم، استطعنا أن نفهم أنّ نقص أرض الكافرين عن طريق استيلاء المسلمين عليها وتحوّلها ديار إسلاميّة. والعجيب بشأن كفّار مكّة العمي البصائر أنّهم لا يرون - هذه الحقائق الناصعة البياض بأعينهم.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يحكم ولا معقّب لحكمه جلّ وعلا ولا رادّ لقضائه. وهو جلّ وعلا سريع الحساب في الأولى والآخرة.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾

فلّله المكر جميعاً : فلّله أسباب المكر جميعاً[2] والمكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلةٍ وذلك ضربان : مكرٌ محمود وذلك أن يتحرّى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال ﴿والله خير الماكرين﴾ ومذمومٌ وهو أن يتحرّى به فعل قبيح. قال[3] ﴿وإذ يمكر بك الّذين

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١١٨/٧ .

(٢) تفسير الطّبري ١١٧/١٣ .

(٣) سورة الأنفال ٣٠ .

كفروا ليثبتوك[1] أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[2].

وكما مكر كفّار مكّة مكر الكافرون الّذين من قبلهم، وقد مكر الله سبحانه وتعالى بهم جميعاً، وردّ كيدهم فى نحورهم، وهو جلّ وعلا خير الماكرين، وله عزّ وجلّ أسباب المكر وعواقبه. إنّ العاقبة بفضل الله تعالى للمتّقين وذلك معناه إفساد مكر الماكرين. ثمّ إنّ هؤلاء الماكرين يعلمون حينما ينير الله تعالى بصائرهم ويهتدون أنّ الخير فى إفساد الله تعالى مكرهم الّذى أرادوا به المؤمنين المتّقين.

والله تعالى يعلم ما تكسب كلّ نفس من خير أو شرّ فيثيبها أو يعاقبها عليه. وسيعلم الكفّار قريباً لمن العاقبة الحسنة لهذه الحياة الأولى. إنّهم سيعلمون أنّ هذه العاقبة للمتّقين. وهذا العلم يكون فى الآخرة، ويصحّ أن يكون فى الأولى كذلك حينما يتأكّد للجميع أنّ ربّ العزّة جلّ وعلا جعل الحياة الطّيّبة فى الأولى للمؤمنين المتّقين.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

كفى بالله شهيداً : حسبي الله شهيداً[3].

يصرّ الكافرون فى كلّ زمانٍ ومكانٍ على الزّعم بأنّ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبدالله ﷺ ليس رسول ربّ العالمين، دليلاً أكيداً على عمى بصائر أولئك الكافرين والعياذ بالله. وحينما لم تغن الآيات والنّذر عن قوم لا يؤمنون فى علم الله تعالى أمرت الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يقول لأولئك المتعنتين : حسبي الله تعالى، وكافيّ[4] الله عزّ وجلّ، شهيداً، هكذا فى صيغة المبالغة، بينى، فى قولى إنّى رسول ربّ العالمين، وبينكم، فى قولكم لى إنّى لست مرسلاً، وحسبى وكافيّ مَن عنده، مِنْ مؤمنى أهل الكتاب اليهود والنّصارى، عِلْمُ الكتاب. والكتاب فى حقّ اليهود التّوراة، وفى حقّ

---

(١) ليثبتوك : ليأسروك ويوثقوك ويحبسوك .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «مكر» ٤٧١ .

(٣) تفسير الطّبري ١١٨/١٣ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حسب» ١١٧ .

النّصارى الإنجيل. إنّ نعت المصطفى ﷺ يجده كلٌّ من اليهود والنّصارى فى هذين الكتابين السّماويين. قال عزّ من قائل[1] : ﴿واكتب لنا فى هذه الدّنيا حسنةً وفى الآخرة إنّا هدنا إليك. قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كلّ شيءٍ فسأكتبها للّذين يتّقون ويؤتون الزّكاة والّذين هم بآياتنا يؤمنون. الّذين يتّبعون الرّسول النّبيّ الأمّي الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّتى أُنزِل معه أولئك هم المفلحون﴾

---

(١) سورة الأعراف ١٥٦ و١٥٧ .

ثالثًا

سورة إبراهيم

سُورَةُ إبراهيم

ترتيبها ١٤ — آياتها ٥٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٌ
لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ
قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ
﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ
لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ
تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ
بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ
فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ
لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ
قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ
﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟
بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

بين يدي التفسير

((أنزل الله تعالى الكتاب العزيز وارسل الرسول الكريم لاخراج الناس من الظّلمات الى النور))
الآيات (١ ـ ٤)

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة كما بدأت سورة الرّعد وما قيل هنالك يقال هنا هذا إلى الانتصار للقرآن الكريم على الفور. فالقرآن الكريم كتابٌ أنزله الله تعالى إلى المصطفى ﷺ ليخرج عليه الصّلاة والسّلام النّاس بإذن ربّهم جلّ وعلا العزيز الحميد، من الظّلمات إلى النّور وإلى الصّراط المستقيم. والله تعالى له ما فى السّماوات والأرض فهو المستحقّ وحده لأن يُعْبَد. وويلٌ للكافرين من عذاب شديد وحسرةٌ عليهم من بلاءٍ أكيد لأنّهم يؤثرون الحياة الدّنيا على الآخرة، ويصدّون الآخرين عن سبيل الله تعالى، ويبغون السّبيل معوجّة. إنّهم حقّاً فى ضلالٍ بعيد. والكافرون كانت منهم هذه المواقف المخزية لهم على الرّغم من كون ربّ العزّة لم يرسل رسولاً إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم ما أوحى الله تعالى به إليه. إنّ من ضلّ زاده الله تعالى العزيز الحكيم ضلالاً ومن اهتدى زاده هدى.

((أرسل اللّه تعالى موسى عليه السلام لإخراج قومه من الظّلمات الى النّور وتذكيرهم نعم الله تعالى))
الآيات (٥ ـ ٨)

كما أرسل الله تعالى محمّداً ﷺ أرسل موسى عليه السّلام بآياته جلّ وعلا لإخراج قومه من الظّلمات إلى النّور ولتذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم. إنّ فى ذلك التّذكير لآياتٍ لكلّ صابر شديد الصّبر، شاكر شديد الشّكر. وامتثالاً لأوامر الله تعالى قال موسى عليه السّلام لقومه اذكروا نعمة الله تعالى عليكم إذ أنجاكم من أهل فرعون ومَنْ على دينه يذيقونكم سوء العذاب ويجشّمونكم الصّعاب ويذبّحون أبناءكم ويستبقون من القتل نساءكم. وفى ذلكم اختبارٌ لكم من ربّكم جلّ وعلا عظيم وبلاءٌ كبير، وإذ أعلن ربّكم جلّ وعلا وأعلم لئن شكرتم لأزيدنّكم من النّعم، ولئن كفرتم لأغيّرنّ النّعم نقماً فإنّ عذابى لشديد. ومن البيّن أنّ هذا الكلام كما يتّجه إلى بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام يتّجه إلى أمّة محمّد ﷺ. وقال موسى عليه السّلام لقومه إن تكفروا يا قومى

ويكفر من فى الأرض جميعاً فإنّ ذلك لا ينقص من ملك الله تعالى شيئاً، وفى المقابل لا تزيد الطّاعة فى ملكه جلّ وعلا شيئاً، فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنىّ، المحمود على كلّ حال.

(طغيان الكافرين بعيد، وعذاب الله تعالى لهم في الاولى والآخرة شديد)

الآيات (٩ ـ ١٨)

فى أسلوب الاستفهام التّقريرىّ تسأل الآية الكريمة الأولى النّاس، الكافرين على جهة الخصوص، ألم يأتكم نبأ الّذين كذّبوا رسلهم من قبلكم قوم نوح أوّل المرسلين، وعادٍ فى جنوب الجزيرة العربيّة قوم هودٍ عليه السّلام، وثمودَ فى شمال الجزيرة العربيّة قوم صالحٍ عليه السّلام، والّذين من بعدهم الّذين لا يعلمهم إلّا الله تعالى. إنّهم جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنات فردّوا أيديهم فى أفواههم مشيرين على المرسلين بالسّكوت والكفّ عن الدّعوة إلى الله تعالى وقالوا لرسلهم إنّا كفرنا بما أرسلتم به من دعوةٍ إلى الله تعالى وإنّا لفى شكٍّ ممّا تدعوننا إليه من توحيد ونبذٍ للشّرك إلى حدّ الارتياب فيما تقولون. ويشير السّياق إلى ردّ الرّسل على المكذّبين وسؤالهم الإنكاريّ : أفى توحيد الله تعالى شكّ وهو الّذى فطر السّماوات والأرض ويدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم يوم القيامة ويؤخّركم إلى أجلٍ مسمّى ومدّةٍ مضروبةٍ لموتكم فلا يعاجلكم بذنوبكم بل يمهلكم. ويجيب الكافرون بأنّ الرّسل ليسوا إلّا بشراً مثلهم فلا فضل لهم عليهم وأنّهم إنّما يريدون أن يصدّوهم عمّا كان يعبد آباؤهم من أصنام فعلى الرّسل أن يأتوا بالسّلطان المبين والحجّة البيّنة أنّهم مرسلون من ربّ العالمين. ويقرّ المرسلون بأنّهم ليسوا إلّا بشراً مثل قومهم ولكنّ الله سبحانه وتعالى يمنّ على من يشاء من عباده بدرجة الرّسالة والنّبوّة، وما ينبغى للمرسلين وليس فى مقدورهم أن يأتوا بأيّ آيةٍ وحجّة إلّا بإذن الله تعالى الّذى يتوكّل عليه المؤمنون، وفى مقدّمة المؤمنين المرسلون. ويسأل المرسلون فى إنكار : وما الّذى يمنعنا أن نتوكّل على الله تعالى وهو جلّ وعلا الّذى هدانا سبلنا. ولا يملك المرسلون تجاه أيذاء الكافرين لهم إلّا أن يعلنوا عن صبرهم على الأذى والتّوكّل على الله تعالى الّذى يتوكّل عليه المتوكّلون. ويبلغ تعنّت الكافرين الحدّ الّذى يهدّدون معه الرّسل بالإخراج من الدّيار إن لم يعودوا مع أتباعهم فى ملّة الكافرين وشركهم، وينتهى الكافرون إلى قمّة الطّغيان فيوحى الله تعالى للمرسلين بأنّه جلّ وعلا سوف يهلك الظّالمين ويستأصل شأفتهم ويسكن المرسلين والمؤمنين الأرض من بعدهم. إنّ ذلك

التّمكين فى الأرض لمن خاف الوقوف بين يدي الله تعالى يوم القيامة وخاف وعيده فى الأولى. لقد سأل المرسلون ربّهم حلّ وعلا النّصر على الكافرين فنصرهم وخذل الكافرين، وخاب كلّ جبّار فى الأرض معاندٍ لرسل الله تعالى وآياته جلّ وعلا. وأمام ذلك الجبّار بعد الموت جهنّم الّتى يصلى حرّها ولا يجد فيها ماءً يشرب سوى الصّديد السّائل من القروح يتكلّف ابتلاعه ولا يسيغه ويأتيه الموت وتحضره أسبابه من كلّ مكانٍ وما هو بميّت ومن ورائه عذابٌ غليظٌ أليمٌ شديد. وإذا كان ذلك عقاب الكافرين بسبب أعمالهم السّيّئة فإنّ أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام قد أحبط الله تعالى ثوابها وأبطلها، وجعلها هباءً منثوراً فَمَثَلُها يوم القيامة حينما يكون الكافرون أشدّ النّاس حاجةً لثوابها كرمادٍ اشتدّت بالعبث به الرّيح الشّديدة الهبوب فى يومٍ عاصف بجامع التّبدّد فى حقّ كلٍّ من الرّماد وثواب الأعمال فلا يقدر الكافرون يوم القيامة على ثواب شيءٍ ممّا كسبوا من خير. إنّ ذلك هو الضّلال البعيد لأنّ الكافرين لا يبقى لهم سوى أعمالهم السّيّئة الّتى يعاقبون عليها.

(خِذلان الشّيطان الرجيم للمتبوعين والتّابعين ودخول المؤمنين جنّات النّعيم)

الآيات (١٩—٢٣)

يخاطب السّياق جنس الإنسان، ابتداءً بخير الأنام ﷺ ويسأل ألم تر بعين عقلك وبصيرتك إثر عينك الّتى فى رأسك أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السّماوات والأرض بالحقّ. إن يشأ يذهبكم أيّها النّاس العاصون ويأت بخلقٍ جديدٍ لن يكونوا أمثالكم فَعَل. وليس ذلك على الله تعالى بممتنع. وفى يوم القيامة الأكيد الوقوع برز الضّالّون لفصل الحساب وظهروا فى الفضاء مع الآخرين فقال الضّعفاء التّابعون للمستكبرين المتبوعين إنّا كنّا لكم تابعين فى سبيل الضّلالة الّذى سلكتموه فهل أنتم مغنون وصارفون عنّا من عذاب الله تعالى من شيء. قال المتبوعون لو هدانا الله تعالى لهديناكم ولكنّا زادنا الله تعالى ضلالاً فأضللناكم وسواءٌ علينا فى هذا الموقف العصيب أصابنا الهلع والجزع أم الصّبر والجلد فإنّا ليس لنا من العذاب من محيصٍ ولا ملجأ. وكما خذل المتبوعون تابعيهم خذل الشّيطان الرّجيم الفريقين فقال اللّعين على رءوس الأشهاد لمّا قُضى الأمر بدخول أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار إنّ الله تعالى وعدكم عن طريق المرسلين وعد الحقّ والصّدق ووعدتكم فأخلفتكم وكذبت عليكم. وما كان لي عليكم من سلطةٍ إلاّ أن دعوتكم إلى الضّلال عن الهدى فاستجبتم لى ولبّيتم النّداء فلا تلومونى أن دعوتكم

إلى الضّلال فهذا عملى ولوموا أنفسكم لأنّكم صدّقتم الكَذوب. وتجاه الموقف العصيب ما أنا بمنقذكم وما أنتم بمنقذيّ، فكّلنا مخلوقون لله تعالى. وإنّى أكفر اليوم وأجحد ادّعاءكم لي فى الدّنيا أنّى شريكٌ وندٌّ لله تعالى. لقد كان جزاء الظّالمين العذاب الأليم، وفي المقابل كان جزاء المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات الخلود بإذن ربّهم جلّ وعلا فى جنّات النّعيم الّتى تجرى من تحتها الأنهار.

«الشّجرة الطّيّبة مَثَلُ المؤمن والشّجرة الخبيثة مَثَلُ الكافر»
الآيات (٢٤—٣٤)

تبدأ أولى آيات القسم الكريمات بسؤال المصطفى ﷺ أصلاً، كلّ مؤمنٍ تبعاً : ألم تر بعقلك كيفَ ضرب الله تعالى مثلاً كلمةً طيّبةً هي شهادة ألّا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله كشجرةٍ طيّبةٍ هي النّخلة أصلها ثابتٌ فى أعماق الأرض وفرعها عالٍ فى جوّ السّماء، وتؤتى ثمرها كلّ وقتٍ بإذن ربّها جلّ وعلا. والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال للنّاس لعلّهم يتّعظون. ويتحوّل السّياق إلى المثل الآخر المقابل المتعلق بكلمة الكفر الخبيثة. إنّها كشجرة الحنظل الخبيثة الّتى استؤصلت من فوق الأرض فمالها من أصلٍ فى الأرض تثبت عليه وتقوم. والمؤمنون يثبّتهم الله تعالى بالقول الثّابت وكلمة الإيمان وشهادة الإسلام فى الحياة الدّنيا فى قبورهم وفى الآخرة يوم يقوم الأشهاد من الملائكة بأداء شهاداتهم. والله تعالى يزيد الظّالمين ضلالاً ويفعل جلّ وعلا ما يشاء ويختار. ويتكرّر القول : ﴿ألم تر﴾ خطاباً للمصطفى ﷺ أساساً وإلى كلّ مسلم بعد ذلك بقصد التّعجّب من كفّار مكّة الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى عليهم بإرسال خير الأنام وتغييرهم تلك النّعمة كفراناً وكفراً بدلاً من الشّكر لله تعالى عليها بالإيمان. إنّهم أحلّوا قومهم دار الهلاك وقادوهم إلى النّار وبئس القرار. وهؤلاء الكافرون جعلوا لله تعالى أنداداً وشركاء ليضلّوا عن سبيله جلّ وعلا ويصدّوا الآخرين عن الجنّة ونعيمها المقيم. إنّ المصطفى ﷺ يؤمر بأن يقول لهم : تمتّعوا فى هذه الحياة الأولى قليلاً فإنّ مصيركم إلى النّار. وفى مقابل الكافرين ثمّة المؤمنون الّذين يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يأمرهم بإقام الصّلاة وبالإنفاق ممّا رزقهم الله تعالى سرّاً فى هيئة الصّدقة وعلانيةً فى هيئة الزّكاة، من قبل أن يأتى يوم القيامة الّذى لا يقبل فيه فداءٌ ولا تنفع فيه صداقة. وكيف لا يؤمن النّاس وكيف لا يشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه الظّاهرة والباطنة. وينصّ السّياق على بعض ما سخّره الله تعالى للإنسان من نعمٍ ظاهرة. فثمّة السّماوات والأرض والماء الّذى أنزله الله تعالى من السّماء فأخرج به جلّ وعلا من الثّمرات رزقاً لنا والفلك الّتى تجرى فى

البحر بما ينفع النّاس بأمره جل وعلا. وثمّة الأنهار، والشّمس والقمر المسخّران، واللّيل والنّهار المسخران كذلك. وثمّة النّعم الّتي آتانا الله تعالى بسؤالٍ منّا وبغير سؤال، فالنّعم لا يمكن أن تُحْصى. وإذا كان المؤمن الّذى يشبه الشّجرة الطّيّبة قد قام بواجب الشّكر لله تعالى على تلك النّعم فإنّ جنس الأنسان وراء ذلك ظلومٌ كفّار. هكذا فى صيغتي المبالغة فعول وفعّال. إنّه حقّاً يشبه الشّجرة الخبيثة والعياذ بالله.

((إبراهيم عليه السلام))
الايات (٣٥—٤١)

يتحوّل السّياق إلى إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء الّذى آتاه الله تعالى رشده فى سنّ مبكّرة، والّذى سأل ربّه جلّ وعلا أن يجعل مكّة المكرّمة البلد الحرام آمناً مطمئناً وأن يبعده هو وبنيه عن عبادة الأصنام. إنّ الأصنام قد أضللن كثيراً من النّاس، وإنّ إبراهيم عليه السّلام رسول ربّ العالمين وأحد أولى العزم من الرّسل الخمسة يبيّن أنّ من تبعه عليه السّلام فأفرد الله تعالى بالعبادة فهو من أهل دينه، أمّا من عصاه فإنّ الله سبحانه هو الغفور الرّحيم، إن شاء هدى فغفر وإن شاء أضلّ فعذّب. وينادى إبراهيم عليه السّلام ربّه جلّ وعلا قائلا: يا ربّنا إنّى أسكنت من ذرّيّتى وولدى إسماعيل بخاصّة وأمّه هاجَر بوادٍ غير ذى زرعٍ هو وادى إبراهيم عليه السّلام عند بيتك المحرّم يا ربّنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدةً من النّاس وقلوباً تهوى إليهم كما يهوى الطّائر إلى عشّه وإلفه وارزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون. وإذا كان المطلوب من جيران البيت الحرام أن يشكروا لله تعالى رزقه لهم من الثّمرات فلا شكّ أنّ واجب الشّكر آكد بجعل أفئدة النّاس تهوى إليهم وتهبط، وقلوبهم تهفو نحوهم وتخفق. ويواصل إبراهيم عليه السّلام الدّعاء قائلا: يا ربّنا إنّك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى عليك يا ربّنا من شيءٍ فى الأرض ولا فى السّماء. ويضرب إبراهيم عليه السّلام الأسوة الحسنة للمسلمين لله ربّ العالمين فى الشّكر لله تعالى وفى إخلاص العبادة. إنّه يحمد الله تعالى حمداً كثيراً وهو جلّ وعلا الّذى وهب له من فضله على الكبر إسماعيل وإسحاق عليهما السّلام. إنّه جلّ وعلا لسميع الدّعاء. ويدعو إبراهيم عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يجعله مقيم الصّلاة ومن ذرّيته، ويسأله جلّ وعلا أن يتقبّل دعاءه. كما يسأله جلّ وعلا أن يغفر له ولوالديه، وذلك قبل أن يتبيّن أنّ والده عدوٌّ لله تعالى، وأن يغفر للمؤمنين والمؤمنات يوم يقوم الحساب فيثاب المؤمن ويعاقب الكافر.

(بعض أهوال يوم القيامة والقرآن الكريم بلاغٌ للناس)
الآيات (٤٢ ـ ٥٢)

بما أنّ كثيراً من النّاس لم يؤمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم إماماً فإنّ سورة إبراهيم عليه السّلام المكّيّة تتحدّث في قسمها الأخير كثيراً عن أولئك الكافرين. إنّ السّياق يخاطب المصطفى ﷺ أساساً، كلّ فردٍ من أفراد الأمة الإسلاميّة تبعاً ويقول له: لا تحسبنّ وتظنّنّ الله تعالى غافلاً عمّا يعمل الظّالمون ومهملاً للكافرين. إنّما يؤخّرهم جلّ وعلا ليوم القيامة الّذى لا تطرف فيه الأبصار والّذى يسرع فيه الخلائق إلى الدّاعى لفصل الحساب رافعى رءوسهم زائغةً أبصارهم لهول الموقف فارغةً أفئدتهم لتمكّن الخوف منها. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن ينذر النّاس يوم يأتيهم العذاب ساعة الوفاة أو الحساب فيقول الّذى ظلموا يا ربّنا أخّرنا إلى أجلٍ قريبٍ نجب فيه دعوتك ونتّبع الرّسل، فيقال لهم: أو لم تكونوا أقسمتم من قبل بأنّكم مالكم من زوالٍ من الدّنيا إلى الآخرة بالبعث بعد الموت فالحساب فالجزاء، وسكنتم فى الدّنيا فى مساكن الّذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم من منازلهم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال كي تعقلوها. إنّ الظّالمين ركبوا رءوسهم وتمادوا في غيّهم ومكروا مكرهم وعند الله تعالى جزاء مكرهم والإحاطة به وما كان مكرهم لتزول منه الجبال وإن كان كبيراً. وحينما يتقلّب الّذين كفروا فى البلاد فلا تحسبنّ الله سبحانه وتعالى مخلف وعده رسله والمؤمنين بالنّصر والتّأييد. إنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ غالب ذو انتقامٍ من أعدائه وعقاب للكافرين يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات كذلك وبرزوا جميعاً للواحد القهّار للحساب فالثّواب فى حقّ المؤمنين، العقاب فى حقّ الكافرين. ويوم القيامة ترى المجرمين مقرّنين فى القيود والأغلال والسّلاسل مع قرنائهم. أمّا قمصهم فإنّها من القَطِران الشّديد الاشتعال وتعلو النّار وجوههم. إن كلّ ذلك يقع فى يوم القيامة ليجزي الله تعالى كلّ نفسٍ بما كسبت من خير أو اكتسبت من شرّ. إنّ الله سبحانه وتعالى سريع الحساب. وهذا القرآن الكريم بلاغٌ للنّاس أجمعين، ولينذر به الظّالمون، وليعلم الجميع أنّما هو إلهٌ واحدٌ لا معبود بحقّ سواه، وليتذكّر أولو الألباب وليتّعظ أصحاب العقول.

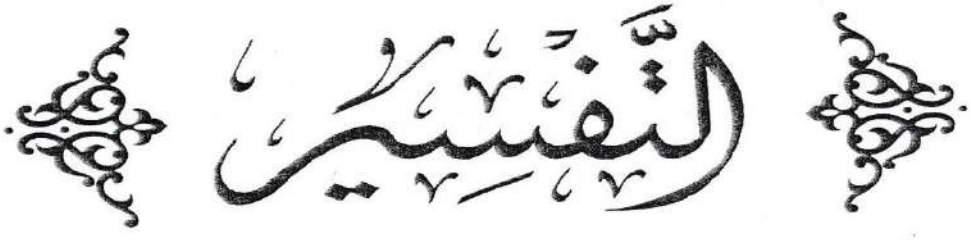

((أنزل اللّٰه تعالى الكتاب العزيز وأرسل الرّسول الكريم ـ
لإخراج النّاس من الظّلمات الى النّور))
الآيـات (١ ـ ٤)

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ
لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾

تبدأ الآية الكريمة الأولى بالحروف المقطّعة : ﴿الر﴾ وذلك على غرار سورة الرّعد. وما قيل هنالك عن الحروف المقطّعة يقال هنا. هذا إلى الانتصار للقرآن الكريم بعد الحروف المقطّعة فى الموضعين أسوةً بسائر السّور الكريمة الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة فى الانتصار للقرآن الكريم، إن لم يكن على الفور فعلى التّراخى. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ هذا الكتاب العزيز أنزله الله تعالى إلى المصطفى ﷺ ليخرج عليه الصّلاة والسّلام النّاس من ظلمات الضّلالة والكفر والشّرك والجهل إلى نور الهداية والإيمان والتّوحيد والعلم بإذن ربهم وبأمره جلّ وعلا وعلمه، إلى صراط الله تعالى العزيز فى ملكه «المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصّادق فى خبره»[1] وإلى طريقه جلّ وعلا المستقيم.

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ العزيز فى ملكه المحمود فى كلّ شىء هو الله تعالى الّذى له ما فى السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً[2] وويلٌ للكافرين وحسْرةٌ عليهم[3] من عذابٍ شديدٍ سيحلّ بهم يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٢ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٥٦٨ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ويل» ٥٣٥ .

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة : الّذين يختارون الحياة الدّنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها على طاعة الله وما يقرّبهم إلى رضاه من الأعمال النّافعة فى الآخرة(١).

ويبغونها عوجاً : ويحبّون أن تكون سبيل الله عوجاً(٢) ويلتمسون سبيل الله وهي دينه الّذى ابتعث به رسوله عوجاً، تحريفاً وتبديلاً بالكذب والزّور(٣) مائلةً عائلةً وهي مستقيمةٌ فى نفسها لا يضرّها من خالفها ولا من خذلها(٤).

إنّ الكافرين الّذين لهم عذابٌ شديدٌ هم الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا الفانية على الآخرة الباقية، ويؤثرون متاع الدّنيا القليل على متاع الآخرة المقيم. ولم يكتف الكافرون بكفرهم إنّما تجاوزا ذلك إلى صدّ الآخرين عن سبيل الله تعالى، ودين الإسلام الّذى بعث به حبيبه ﷺ، وإلى التّجاوز فى البغي والعدوان إلى حدّ ابتغاء سبيل الله تعالى المستقيمة معوجّة والاجتهاد فى سبيل تلك الغاية الخسيسة. إنّ أولئك فى ضلالٍ بعيدٍ وانحرافٍ عن الطّريق المستقيم أكيد.

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

من رحمة الله تعالى بعباده أن يبعث إليهم رسلاً لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن رحمة الله تعالى بعباده كذلك أنّ كلّ رسولٍ يبعثه الله تعالى إنّما يكون من قومه وبلسانهم ولغتهم ليبيّن لهم ما أرسله الله تعالى به. وهكذا تتمّ الحُجّة على كلّ أمّة، وتكون مسئوليّة كلّ فرد. فمن أعرض وأصرّ على ضلاله زاده الله تعالى ضلالاً،

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٢١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٢ .
(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٢١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٢ .

وهؤلاء عبّرت عنهم الآية الكريمة بالقول : ﴿فيضلّ الله من يشاء﴾ ومن آمن واهتدى زاده الله تعالى هدىً، وهؤلاء عبّرت عنهم الآية الكريمة بالقول : ﴿ويهدي من يشاء﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه.

وبشأن رسالة المصطفى ﷺ العالميّة منذ فجرها جاء ـ مثلاً ـ فى سورة سبأ[1] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وما أرسلناك إلاّ كافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ وفى سورة الأعراف[2] جاء قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿قل يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعاً﴾ وثبت فى الصّحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلى . نصرت بالرّعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً. وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحدٍ قبلى. وأعطيت الشّفاعة. وكان النّبيّ يبعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة[3] .

وما معنى اصطفاء الله تعالى محمّد بن عبدالله ﷺ من العرب؟ معناه المسئولية الضّخمة الملقاة على عاتق العرب باعتبارهم مادّة الإسلام الأولى. إنّ على العرب أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وإلاّ حقّ فيهم قول الحقّ جلّ وعلا[4] : ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم﴾.

---

(١) الآية ٢٨ .

(٢) الآية ١٥٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٢ .

(٤) سورة محمّد ٣٨ .

(أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام لإخراج قومه من الظّلمات الى النّور وتذكيرهم نعم الله تعالى) الآيات (٥ ـ ٨)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ
اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

وذكّرهم بأيّام الله : أي بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إيّاهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إيّاهم من عدوّهم وفلقه لهم البحر وتظليله إيّاهم بالغمام وإنزاله عليهم المنّ والسّلوى. إلى غير ذلك من النّعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد[1] عن ابن عبّاس عن أبيّ عن النّبيّ ﷺ : وذكرهم بأيّام الله، قال : نعم الله[2] فإضافة الأيّام إلى الله تعالى تشريفٌ لأمرها لما أفاض الله عليهم من نعمه فيها[3].

كما أرسل الله تعالى محمّداً ﷺ بدين الإسلام وأنزل عليه الكتاب العزيز ليخرج النّاس من الظّلمات إلى النّور أرسل مِنْ قَبْلُ موسى عليه السّلام بآياته جلّ وعلا التّسع الّتي حباها موسى عليه السّلام، وأمر جلّ وعلا موسى عليه السّلام أن يخرج قومه من الظّلمات إلى النّور بإذن ربّهم، وأن يذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، كي يقوموا بما يجب عليهم من شكر لله تعالى عليها. إنّ فى ذلك التّذكير لآياتٍ وعبراً لكلّ صبّارٍ على الضرّاء شكورٍ على النّعماء. ومن البيّن أنّنا بصدد صيغتي المبالغة : ﴿صبّار﴾ و : ﴿شكور﴾ ومن البيّن أنّ الصّبر كما يكون على البلاء يكون عن المعصيّة وعلى الطّاعة. وبشأن نعمتي الصّبر والشّكر جاء مثل هذا الحديث النّبويّ الشّريف. فى الصّحيح عن رسول الله ﷺ أنّه قال : إنّ أمر المؤمن كلّه عجب، لا يقضى الله له قضاءً إلّا كان خيراً له. إن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له. وإن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً لـه[4].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٣ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٢٣ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «يوم» ٥٥٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٣ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

يسومونكم سوء العذاب : يذيقونكم شديد العذاب[1].

ويستحيون نساءكم : ويستبقون[2] إناثكم[3] ويبقون نساءكم فيتركون قتلهن[4].

وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم : وفى ذلكم اختبارٌ لكم من ربّكم عظيم[5].

واذكر يا محمّد إذ قال موسى عليه السّلام لقومه بنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم وقوموا بما يجب عليكم من شكرٍ لله تعالى إذ أنجاكم من فرعون وآله وأهل دين فرعون ومن يرى رأيه، يذيقونكم شديد العذاب ويجشّمونكم أشقّه ويذبّحون أبناءكم ويقتّلون أطفالكم الذّكور خوفاً من المولود من بنى إسرائيل الّذى قيل لفرعون إنّ ملكه يذهب به أحد بنى إسرائيل الذّكور الحديثى الولادة. وفى مقابل تقتيل الذّكور هنالك استحياء النّساء واستبقاؤهنّ وترك قتلهنّ. إنّ فى ذلك العذاب والقتل والاستحياء بلاءً من الله تعالى عظيماً واختباراً شديداً.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

وإذ تأذّن ربّكم : وإذ أعلم ربّكم[6] والإذن والأذان لما يُسْمَع ويعبَّر بذلك عن

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٢٤ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٣ .

(٤) تفسير الطّبري ١٣/١٢٤ .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/١٢٤ .

(٦) تفسير الطّبري ١٣/١٢٤ والجلالين .

العِلْم إذ هو مبدأ كثير من العلم فينا[1].

واذكر يا محمّد إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله تعالى عليكم وقوله وإذ أعلم ربّكم وأعلن لئن شكرتم لى على نعمى وآلائى عليكم لأزيّدنكم من نعمى وآلائى. وزيادة النّعم والآلاء مبنيّة على بقاء النّعم والآلاء السّابقة. ولئن كفرتم نعمى وكفرتم بى وأشركتم فى العبادة سواي معى فإنّ عذابى لشديد وأخذى لأليم. جاء فى سورة الأنفال[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم﴾ وجاء فى سورة الرّعد[3] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿له معقّباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم. وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ومالهم من دونه مِنْ والٍ﴾.

ومن البيّن أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب فالإعلام من ربّ الأنام موجّهٌ إلى الأمّة الإسلاميّة أيضاً.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

أكدّ موسى عليه السّلام معنى الآية الكريمة السّابقة. إنّه عليه السّلام يقول لقومه : إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإنّ الله سبحانه وتعالى هو الغنيّ عنكم المحمود على كلّ حال. وإذا كان القول فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ولئن كفرتم﴾ ينصرف إلى كفر النّعمة أساساً، الكفر بالله تعالى تبعاً، فإنّ شيئاً كهذا يصحّ أن يقال هنا. ويؤيّد ذلك الحديث القدسيّ الّذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذرّ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربّه عزّ وجلّ أنّه قال : يا عبادى لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى ملكي شيئاً. يا عبادى لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً. يا عبادى لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا فى صعيدٍ واحدٍ فسألونى فأعطيت كلّ إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئاً إلّا كما ينقص المِخْيَط[4] إذا دخل البحر[5].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أذن» ١٤ .

(٢) الآية ٥٣ .

(٣) الآية ١١

(٤) المِخْيط : الإبرة .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٤ .

((طغيان الكافرين بعيد، وعذاب الله تعالى لهم في الأُولى والآخرة شديد))

الآيات (٩—١٨)

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

فردّوا أيديهم فى أفواههم : أفواه جمع فم. وأصل فم فَوَه. وكلّ موضع علّق الله تعالى حكم القول بالفم فإشارة إلى الكذب وتنبيهٌ أنّ الاعتقاد لا يطابقه نحو ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ وقوله ﴿كلمةً تخرج من أفواههم﴾ ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم﴾ ﴿فردّوا أيديهم فى أفواههم﴾[1] قيل عضّوا الأنامل غيظاً. وقيل أومأوا إلى السّكوت وأشاروا باليد إلى الفم. وقيل ردّوا أيديهم فى أفواه الأنبياء فأسكتوهم. واستعمال الرّدّ فى ذلك تنبيهاً أنهم فعلوا ذلك مرّة بعد أخرى[2].

فى أسلوب الاستفهام التّقريريّ تسأل الآية الكريمة النّاس أجمعين ألم يأتكم فى هذا الكتاب العزيز نبأ الّذى من قبلكم والخبر الغاية فى الأهمّيّة وعظم الفائدة[3] المتعلّق بقوم نوحٍ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى والأب الثّانى للبشريّة، والمتعلّق بعاد قوم هودٍ عليه السّلام فى جنوب الجزيرة العربيّة فى الأحقاف بمعنى كُثْبان الرّمل[4] بين عُمان وحضرموت. والمتعلّق بثمود قوم صالحٍ عليه السّلام فى شمال الجزيرة العربيّة فى مدائن صالح أو العُلا أو الحِجْر والمتعلّق بالأمم الّذين من بعدهم الّذين لا يعلم عددهم وعدد النّبيّين فيهم والمرسلين إليهم إلّا الله تعالى. إنّ كلّ أولئك المكذّبين جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنات الواضحات، ووصلت إليهم فعلاً بالحجج البالغات الدّامغات فردّ الكافرون أيديهم كرّاتٍ ومرّاتٍ فى أفواههم مشيرين على المرسلين بالسّكوت والكفّ عن

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فوه» ٣٨٩ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رد» ١٩٢ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نبأ» ٤٨١ .
(٤) الأحقاف جمع الحِقْف بكسر الحاء وسكون القاف وهو ما اعوجّ من الرّمل واستطال .

الدّعوة إلى الله تعالى قائلين لهم بصريح اللّفظ إنّهم قد كفروا بما أرسلهم الله تعالى به من دعوةٍ إلى التّوحيد ونبذ الشّرك، وإنهم لفى شكٍّ ممّا يدعو الرّسل إليه أقوامهم إلى حدّ الارتياب ! قال عزّ من قائل [1] : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى في الصدور ﴾ .

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أنّ الأمم المكذّبة قالت لرسلها إنّها لفى شكّ مما تدعو الرّسل إليه من توحيد الله تعالى. والمعروف أنّ إنكار وجود الله تعالى فى القديم أقلّ منه فى العصور المتأخّرة وبخاصّة فى عصرنا الّذى نعيش فيه. وبناءً على ذلك نميل إلى الاعتقاد بأنّ القول فى الآية الكريمة هنا على ألسنة رسل الله تعالى : ﴿أفى الله شكٌّ﴾ ليس بمعنى أفى وجود الله تعالى شكّ، وإن كان هذا المعنى وارداً، ولكن أفى توحيد الله تعالى شكّ وهو الّذى فطر السّماوات والأرض وأوجدهما على غير مثالٍ سابق. ويواصل الرّسل حديثهم بعد الاستفهام الإنكارى مبيّنين لأقوامهم أنّ ربّ العزّة يدعوهم على ألسنة الرّسل إلى توحيده جلّ وعلا ليغفر لهم يوم القيامة ذنوبهم وليؤخّرهم فى هذه الحياة الأولى إلى أجلٍ مسمىّ ومدّةٍ معيّنةٍ تنتهى فيها حياتهم فلا يعاجلهم بالعقوبة إنّما يملى لهم ويمهلهم. ويصرّ الكافرون على صدّهم وعنادهم ويقولون للرّسل ما أنتم إلّا بشرٌ مثلنا تريدون أن تمنعونا وتصدونا عمّا كان يعبد آباؤنا من أصنامٍ وأوثان. إنّكم إن كنتم صادقين فى ادّعائكم أنّكم مرسلون من ربّ العالمين فأتونا بالسّلطان المبين والحجّة الدّالّة على ذلك. ومن البيّن دلالة جملة : ﴿فأتونا﴾ على البعد واستحالة مجىء الرّسل بالحجّة. ثمّ إنّ المشركين يطلبون الحجّة ولا ينكرون وجود الله تعالى وفى هذا دليلٌ على ما ذهبنا إليه بشأن القول : ﴿قالت رسلهم أفى الله شكٌّ﴾.

---

(١) سورة الحجّ ٤٦ .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يجيب المرسلون أقوامهم الكافرين معترفين قائلين : ما نحن إلّا بشرٌ مثلكم كما قلتم، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يمنّ على من يشاء من عباده، فلا رادّ لفضله جلّ وعلا ولا معقّب لحكمه، وقد أكرمنا الله تعالى بالرّسالة، وخصّنا بالنّبوّة، وأيّدنا بما شاء من الآيات، وحبانا من المعجزات. وما كان لنا أن نأتيكم بحجّةٍ إلّا بإذن الله تعالى ولا بمعجزةٍ إلّا بفضله جلّ وعلا. إنّا نتوكّل على الله تعالى فى كلّ شئوننا وعلى الله تعالى وحده لا شريك له ينبغى إنّا يتوكّل المؤمنون.

وفى الآية الكريمة الأخرى يسأل المرسلون فى إنكار : وما لنا ألّا نتوكّل على الله تعالى وحده لا شريك له، وما الّذى يمنعنا من ذلك، وهو عزّ وجلّ الّذى هدانا سبلنا، وأنار طرقنا، ونوّر بصائرنا. أمّا إيذاؤكم لنا أيّها المشركون فإنّا نصبر عليه حتّى يحكم بيننا جلّ وعلا ويفتح بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم الرّزّاق الكريم الّذى نتوكّل عليه، والّذى ينبغى أن يتوكّل عليه وحده دون سواه المتوكّلون فى كلّ زمانٍ ومكان.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

بلغت الجراءة بالكافرين أبعد مدىً لها بإخراج رسل الله تعالى من بين ظهرانيْهِمْ وليس وراء هذا الطّغيان وراء. إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ الّذين كفروا قالوا لرسل

الله تعالى من باب التّهديد لهم وحملهم على الكفّ عن الدّعوة إلى توحيد الله تعالى : لنخرجنّكم من أرضنا مطرودين مقهورين أو لتعودنّ أنتم ومن آمن بكم فى ملّتنا. ولم يكن الرّسل وقتاً من الأوقات على ملّة الكافرين ولكنّهم أدخلوهم فى الّذين آمنوا بهم بعد أن خرجوا من ملّتهم. وما معنى طلب الكافرين عودة المؤمنين إلى الكفر كيلا يُخْرِجوا المؤمنين والمرسلين من أرضهم؟ أن يمتنع الرّسل من الدّعوة إلى الله تعالى وأداء الأمانة الّتى ائتمنهم الله تعالى عليها. وتقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة أوحى إلى المرسلين، ربّهم وربّ المستضعفين وربّ العالمين، لنهلكنّ الظّالمين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً. ومن البيّن أنّ الهلاك أشدّ من الإخراج.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ ربّ العزّة سوف يسكن المرسلين والمؤمنين الأرض من بعد هلاك الكافرين. وإنّ إطلاق لفظ الأرض يعنى أرض الكافرين الّذين أهلكهم الله تعالى وغيرها. إنّ ذلك النّصر على الأعداء والتّمكين فى الأرض لمن خاف القيام بين يدي الله تعالى يوم القيامة وخاف وعيد الله تعالى بالعذاب الشّديد وتهديده بالأخذ الأكيد..

وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

واستفتحوا : واستفتحت الرّسل على قومها أي استنصرت الله عليها[1].

وخاب كلّ جبارٍ عنيد : وخسر[2] وهلك كلّ متكبرٍ جائرٍ حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له[3].

من ورائه جهّنم : من أمام كلّ جبّارٍ جهنّم يردونها. ووراء فى هذا الموضع يعنى

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٢٩ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٢٩ .

أمام، كما يقال : إنّ الموت من ورائك أي قدّامك[1].

صديد : الصّديد هو القيح والدّم[2].

يتجرّعه : يتحسّاه[3] ويتغصّصه ويتكرّهه[4].

ولا يكاد يسيغه : ولا يكاد يزدرده من شدّة كراهته وهو يسيغه من شدّة العطش[5].

تجاه طغيان الكافرين وإصرارهم على إيصال أبلغ الأذى وأشدّ الضّرر للمرسلين بما فى ذلك إخراجهم من بلادهم لم يملك المرسلون سوى أن يسألوا الله تعالى الفتح على الأعدا ويطلبوه النّصر على الكافرين البغاة، فاستجاب الله تعالى دعاءهم، وحقّق رجاءهم، فأخذ الكافرين أخذ عزيزٍ مقتدر فخاب رجاء الجبّارين وذهبت سُدًى جهود المعاندين للحقّ الحريصين على إطفاء نور الله تعالى بأفواههم وطمس معالم دينه جلّ وعلا بأيديهم.

وإذا كان هذا هو خزي الدّنيا الّذى أشارت إليه الآية الكريمة الأولى فإنّ الآيتين الكريمتين الأخريين تتحدّثان عن عذاب الآخرة الأخزي. إنّ أمام هذا الجبّار العنيد نار جهنّم الّتى يصلى حرّها. ويلاحظ أنّ الآية الكريمة عبّرت عن الأمام بالقول : ﴿من ورائه﴾ وربّما كان فى اختيار الوراء بالذّات تنبيهٌ إلى أنّ هؤلاء الأخسرين الّذين يظنّون أنّهم يحسنون صنعاً ويسيرون إلى الأمام بمثابة من يسير إلى ورائه لا يبصر شيئاً ولا يهتدى سبيلاً حتى يقع فى الهاوية على أمّ رأسه.

وفى جهنّم يُسْقَى هذا الجبّار العنيد حينما يعطش من ماءٍ صديد وهو ماء يسيلُ من جوفه مختلطاً بدمه وقيحه والعياذ بالله. وتحت وطأة العطش الشّديد والعذاب الّذى ليس عليه من مزيد لا يملك الجبّار العنيد إلّا أن يتجرّع ذلك الصّديد ويتكلّف ازدراده ويتجشّم ابتلاعه وهماً منه بأنّ ذلك ربّما أطفأ لهيب جوفه وهيهات. وليس تجرّع الماء الصّديد الّذى هو بمثابة حضور أسباب الموت هو العذاب الوحيد، ولكنّ هنالك الكثير

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٣٠.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٣٠.

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٣١.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٦.

(٥) تفسير الطّبري ١٣/١٣١.

من مظاهر العذاب الّتي يُنزَّل كلّ واحد منها منزلة الموت. فكأنّ الموت يأتي الجبّار العنيد من كلّ مكان وماهو بميّت. إنّه ليس بالميّت فيستريح، وليس بالحيّ الّذي ينعم بالحياة الطّيّبة. ووراء كلّ هذه الأنواع من العذاب عذابٌ غليظ. وإنّ مجيء لفظة مكان في القول: ﴿من كل مكان﴾ دليلٌ على مجيء الموت من كلّ المنافذ ولكن لا موت ولا فوت.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

في يومٍ عاصف: أي ذي ريحٍ شديدة عاصفة قويّة[1] وريح عاصفٌ وعاصفةٌ ومعصِفة تكسر الشّيء فتجعله كعصف[2] وقيل في يوم عاصفٍ فوصف بالعصوف وهو من صفة الرّيح لأن الرّيح تكون فيه كما يقال يومٌ باردٌ ويومٌ حارّ لأنّ البرد والحرّ يكونان فيه[3].

تقرّر الآية الكريمة أنّ مثل أعمال الّذين كفروا بربّهم الصّالحة من صلة رحم وإغاثة ملهوف ورعاية حقوق الجار وما إلى ذلك من أعمال صالحة ولكنّهم لم يريدوا بها وجه ربّهم الأعلى كرماد اشتدّت به الرّيح الشّديدة الهبوب في يومٍ عاصف. إنّ الرّيح العاصف اشتدّ هبوبها فاشتدّ تبديدها للرّماد الّذي يثيره أبسط نسيم ويهيجه. وإنّ أعمال الكافرين الصّالحة قد جعلها الله تعالى هباءً منثوراً كالرّماد وأحبط ثوابها فلم يقدر الكافرون يوم القيامة على الحصول على ثواب تلك الأعمال رغم شدّة حاجتهم إليها.

إنّ ذلك هو الضّلال البعيد والخسران الأكيد. والمعروف أن ثمّة شرطين اثنين ينبغي توافرهما كي تكون الأعمال مقبولةً بإذن الله تعالى. أن تكون صواباً بمقياس الأسلام وأن تكون صالحةً يراد بها وجه الله تعالى. وبشأن الكافرين اختلّ أحد الشّرطين.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عصف» ٣٣٦.

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٣٢.

((خِذلان الشّيطان الرّجيم للمتبوعين والتّابعين - ودخول المؤمنين جنّات النّعيم))

الآيـات (١٩ــ ٢٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

وما ذلك على الله بعزيز : وما ذلك على الله بممتنع ولا متعذّر[1].

ألم تر يا محمّد بعين قلبك، والخطاب وراء ذلك متّجه إلى كلّ إنسان، ألم تر أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السّماوات والأرض، الّتى هي أكبر من خلق النّاس، بالحقّ والصّدق. والرّاسخ فى نفوس المخلوقين أنّ إعادة عمل الشيء أهون من اختراعه وإيجاده من العدم. نقول هذا بلغتنا نحن البشر العاجزين المقهورى الإرادة أمّا فى حقّ الذّات العليّة فإنّ الأعمال كلّها سواء. يستوى فى ذلك الابتداء والعودة فى حقّ السّماوات والأرض ومن باب الأحرى فى حقّ المخلوقات الأخرى ومنهم البشر. إنّ ربّ العزّة إن يشأ يُذْهبكم أيّها الكافرون الظّالمون ويأت بآخرين لن يكونوا أمثالكم. إنّ إهلاك الأوّلين وإتباعهم الآخرين ليس أيٌّ منهما على الله تعالى بعزيزٍ ولا متعذّر ولا شديد.

وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

وبرزوا لله جميعاً : البَراز الفضاء وبرز حصل فى بَراز[2] وهو المكان الّذى ليس فيه شيءٌ يستر أحداً[3].

إنّا كنّا لكم تبعاً : فى الدّنيا. والتَّبَع جمع تابع[4] يقال : تَبِعه واتَّبَعه قَفا أثره[5].

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٣٢ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «برز» ٤٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٨ .

(٤) تفسير الطّبري ١٣/١٣٣ .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «تبع» ٧٢ .

سواءٌ علينا أجزعنا : الجزع أبلغ من الحُزْن فإنّ الحزن عامّ والجزع هو حزنٌ يصرف الإنسان عمّا هو بصدده ويقطعه عنه. وأصل الجَزْع قطع الحبل من نصفه يقال : جزعته فانجزع [1].

ما لنا من محيص : ما لنا من ملجأ[2] يقال : حاص عن الشّيء إذا حاد عنه [3]

برز الكافرون من التّابعين والمتبوعين لفصل الحساب يوم القيامة فقال الضعفاء الشّخصيّة والعقل من التّابعين للّذين استكبروا وعتوا وتجبّروا من المتبوعين إنّا كنّا لكم فى الحياة الدّنيا تابعين وأذناباً. فهل أنتم مغنون عنّا من عذاب الله تعالى فى هذا الموقف العصيب من شيء. وهل أنتم صارفون عنّا أو حاملون عنّا شيئاً من هذا العقاب الشّديد فى هذا اليوم المجموع له النّاس المشهود ونحن الّذين كنّا نثق فيكم الثّقة المطلقة ونطيعكم الطّاعة العمياء. قال المتبوعون الضّالّون لو هدانا الله تعالى فى الحياة الأولى لهديناكم ولكنّ الله سبحانه وتعالى لم يهدنا لأنّا كنّا حريصين على الضّلال واستحببنا العمى على الهدى فزادنا الله تعالى ضلالاً وعمى فَقُدْناكم معنا إلى مهاوى الرّدى. إنّه يستوى فى حقّنا هذا اليوم وكذلك فى حقّكم أن نجزع أشدّ الجزع أو أن نصبر. إنّا وأنتم ليس لنا من محيصٍ من عذاب الله تعالى ولا مهربٍ من عقابه عزّ وجلّ ولا ملجأ.

وهكذا خذل المتبوعون التّابعين. وكذلك خذّل الشّيطان الرّجيم الفريقين على نحو ما يتجلّى فى الآية الكريمة التّالية.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جزع» ٩٢.

(٢) الجلالين.

(٣) أنظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «حيص» ١٣٦.

وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ
فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ : الصّارخ المستغيث، والمُصْرخ المغيث، والمستصرخ المستغيث أيضاً[1] يقال : أصرخت الرّجل إذا أغثته إصراخاً. وقد صرخ الصّارخ يَصْرُخ[2] صراخاً[3] وصريخاً[4] فالهمزة همزة الإزالة.

لمّا قضي الأمر يوم القيامة بدخول أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار، وخَذَل المتبوعون التّابعين جاء دور اللّعين الّذى أضلّ الفريقين، التّابعين والمتبوعين معاً، فكانت منه خطبةٌ فى أتباعه أصحاب الجحيم تنصّل فيها من كلّ التّبعات. إنّ الشّيطان يعلن فى خطبته على رءوس الأشهاد بأنّ الله سبحانه وتعالى وعد على ألسنة المرسلين والنّبيّين، ووعده الحقّ، وقوله الصّدق، بأنّ الجنّة ثواب المؤمنين والنّار عقاب الكافرين، فى حين وعد اللّعين أتباعه بالغرور والكذب. ولم يكن للّعين من سلطانٍ على أتباعه ولا حجّةٍ على صدقه، وكلّ الّذى كان للّعين الوعود المعسولة والأمانىّ الكاذبة، بها دعاهم وبواسطتها استمالهم، فصدّقوه واتّبعوه. إنّهم هم الملومون حقاً لتصديق الكذّاب اللّعين فعليهم ألاّ يلوموا اللّعين وأن يلوموا أنفسهم. ويلاحظ أنّ ما يقوله الشّيطان الرّجيم يوم القيامة يقوله كلّ شيطانٍ فى الأولى والآخرة. إنّ كلّ شيطانٍ يتنصّل من المسئوليّة وعلى الضّحيّة أن تدفع الثّمن الباهظ. إنّ الشّيطان الرّجيم ليس بمغيثٍ أصحابه ولا بمزيلٍ صراخهم، وإن أصحاب الشّيطان وأتباعه ليسوا بمغيثيه ولا بمزيلين صراخه وهم

---

(١) أنظر لسان العرب : «صرخ».
(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٣٣.
(٣) لسان العرب : «صرخ».
(٤) المعجم الوسيط : «صرخ».

التّابعون الأعجز والأضعف جسداً وعقلاً. بل إنّ اللّعين ليعلن فى ذلك اليوم المهيب والموقف العصيب ويقول بصريح اللّفظ لأتباعه بأنّه كفر وجحد أن يكون شريكاً لله عزّ وجلّ حسب زعم أتباعه فى الحياة الأولى! ولمّا كان الجميع ظالمين، يستوى فى ذلك التّابعون الضّالّون والمتبوعون المضلّلون، كان للجميع فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود العذاب الأليم والعقاب الشّديد.

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

فى مقابل دخول الكافرين النّار بإذن ربّهم يدخل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات جنّاتٍ تجرى من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها بإذن ربّهم جلّ وعلا وماكثين فيها أبداً. إنّ خلود المؤمنين فى الجنّة فى مقابل خلود الكافرين فى النّار. وفى الجنّة تحيّى الملائكة المؤمنين بتحيّة السّلام والأمن والطّمأنينة والإسلام كما يحيّى بعضهم بعضاً بهذه التّحيّة. قال عزّ من قائل[1]: ﴿إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات يهديهم ربّهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنّات النّعيم. دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ وتحيّتهم فيها سلام. وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين﴾.

---

(١) سورة يونس ٩ و ١٠

﴿الشّجرة الطّيّبة مَثَلُ المؤمن
والشّجرة الخبيثة مَثَلُ الكافر﴾
الآيات (٢٤—٣٤)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

كلمة طيّبة : يعنى بالطيّبة الإيمان به جلّ ثناؤه(١).

كشجرة طيّبة : كشجرة طيّبة الثّمرة. وترك ذكر الثّمرة استغناءً بمعرفة السّامعين عن ذكرها بذكر الشّجرة(٢).

وفرعها : أعلاها(٣) وغصنها(٤).

أكلها : ما يؤكل منها من ثمرها(٥).

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ أصلاً، كلّ إنسانٍ نورّ الله تعالى بصيرته تبعاً وتسأله : ألم تر بعقلك كيف ضرب الله تعالى مثلاً كلمةً طيّبة هي كلمة الإيمان وشهادة ألّا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله كشجرةٍ طيّبةٍ هي النّخلة. أصلها وجذْرها ثابتٌ فى أعماق الأرض وفرعها وغصنها مرتفعٌ فى جوّ السّماء.

وهذه الشّجرة المباركة تؤتى أكلها كلّ حين وتُعْطِى ثمرها كلّ وقت بإذن ربّها جلّ وعلا. والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال للنّاس ويقرّب لهم المعاني البعيدة والمرامي القصّية بإظهارها فى مظهر الشّىء المحسوس والملموس لعلّهم يتّعظون ويتذكّرون. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنّا عند رسول الله ﷺ فقال : أخبروني بشجرةٍ تشبه أو كالرّجل المسلم لا يتحاتّ(٦) ورقها ولا ولا ولا. تؤتى أكلها كلّ حين. قال ابن عمر

---

(١) تفسير الطّبري ١٣/١٣٥ .

(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٣٥ .

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٣٥ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير الطّبري ١٣/١٣٥ .

(٦) لا يتحاتّ ورقها : لا يسقط ولا يتناثر .

فوقع فى نفسى أنّها النّخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلّمان، فكرهت أن أتكلّم. فلمّا لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ هى النّخلة. فلمّا قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنّها النّخلة. فقال: ما منعك أن تكلّم؟ قال: لم أركم تكلّمون فكرهت أن أتكلّم أو أقول شيئا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحبُّ إليّ من كذا وكذا[1].

إنّ الشّجرة الطّيّبة المباركة إذا كانت تؤتى أكلها وتطرح ثمرها كلّ وقتٍ بإذن ربّها جلّ وعلا فكذلك المؤمن. حسناته موصولة، وكلمه الطّيّب يصعد إليه جلّ وعلا، وعمله الصّالح يُرْفع باستمرار. ولله الحمد والمنّة.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

اجتثّت: استؤصلت[2]

ما لها من قرار: ما لها من أصلٍ في الأرض تنبت عليه وتقوم[3] ولاثبات[4] ولا مستقرّ[5].

ومثل كلمةٍ خبيثةٍ هي كلمة الكفر كشجرةٍ خبيثةٍ هي شجرة الحنظل استئصلت من فوق الأرض فما لها قرار ولا ثبات، أصلٌ ولا فرع، أُكُلٌ ولا ثمر. وكذلك الكافر. إنّ أعماله كلّها تذهب هباءً لأنّها إن كانت صواباً بمقياس الإسلام فقد فقدت شرط الصّلاح والابتغاء بها وجه الله تعالى. وإن كانت طالحةً فقد فقدت الشّرطين الاثنين معاً. والله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال إلّا ما كان صواباً بمقياس الإسلام وصالحاً أريد به وجه الله تعالى. إنّ اختلال أحد الشّرطين محبطٌ للعمل فكيف باختلال الشّرطين معاً.

---

(١) صحيح البخاري ٦/٩٩ وفتح الباري ٨/٣٧٧ حديث رقم ٤٦٩٨.

(٢) تفسير الطّبري ١٣/١٤١ وتفسير ابن كثير ٢/٥٣١ والجلالين وصحيح البخاري ٦/٩٩ وفتح الباري ٨/٣٧٧.

(٣) تفسير الطّبري ١٣/١٤١ وفتح الباري ٨/٣٧٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٣١ والجلالين.

(٥) الجلالين.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

يثّبت الله سبحانه وتعالى الّذين آمنوا بالقول الثّابت الحقّ، كلمة التّوحيد وشهادة ألّا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله فى الحياة الدّنيا وذلك فى القبر[١] وفى الآخرة يوم يقوم الأشهاد. ويضلّ الله سبحانه وتعالى الظّالمين ويفعل جلّ وعلا ما يشاء، لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه جلّ وعلا.

عن البراء بن عازب أنّ رسول الله ﷺ قال: المسلم إذا سُئِل فى القبر يَشْهَدُ أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فذلك قوله ﴿يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت فى الحياة الدّنيا وفى الآخرة﴾[٢] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

دار البوار: دار الهلاك[٣].

وجعلوا لله أنداداً: الأنداد جمع نِدّ بمعنى الشّركاء[٤].

يتّجه الخطاب أساساً إلى المصطفى ﷺ وإلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة بعد ذلك فتسأل الآية الكريمة الأولى المخاطب: ألم تنظر إلى الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى بإرسال رحمة الله تعالى إليهم المهداة ونعمته المسداة محمّد بن عبدالله ﷺ وغيّروا نعمة الله تعالى كفراً وهم قريش قوم المصطفى ﷺ الّذين كفروا به وناصبوه العَداء وأحلّوا قومهم الّذين أضلّوهم دار البوار والهلاك بصرفهم عن الإسلام وصدّهم عنه[٥].

(١) انظر ـ مثلاً ـ تفسير الطّبري ١٤٢/١٣ وتفسير ابن كثير ٥٣١/٢ .

(٢) صحيح البخاري ١٠٠/٦ وفتح الباري ٣٧٨/٨ حديث رقم ٤٦٩٩ .

(٣) تفسير الطّبري ١٤٥/١٣ وتفسير ابن كثير ٥٣٨/٢ والجلالين وصحيح البخاري ١٠٠/٦ .

(٤) تفسير الطّبري ١٤٨/١٣ وتفسير ابن كثير ٥٣٩/٢ والجلالين .

(٥) انظر مثلاً صحيح البخاري ١٠٠/٦ .